

# المدينة والهجرات الجديدة

## Città e nuove migrazioni

كان القرن العشرون فترة انشاء المدن والهجرات. كان الناس في تاريخ المجتمعات البشرية غالباً ما يعيشون في بيئات ريفية، ولكن ولأول مرة في بداية القرن الحادي والعشرين، بدأ غالبية البشر بالعيش في المدن. هذا التحول التاريخي هو نتيجة لعملية تحضر غير عادية شوهدت في القرن الماضي، إنها حركة هجرة على مستوى محلي وعالمي، مما جعلنا نطلق على العصر الحالي اسم "عصر الهجرات". مدينة تورينو هي مثال واضح لهذه الظاهرة. مدينتنا في الحقيقة نشأت بفضل الهجرات من الأقاليم القريبة أولاً ثم من الأقاليم الإيطالية البعيدة وأخيراً من شتى أنحاء العالم. بشكل خاص كان تدفق المواطنين الجدد قادمين من جنوب إيطاليا، حدث ذلك في العقود التي تلت الحرب العالمية الثانية، ساهموا في تغيير ملامح مدينة تورينو: عشرات الآلاف من الأشخاص وجدوا عملاً في الصناعات الكبيرة واستوطنوا في أحياء جديدة بالمدينة، مثل حي ميرافيوري وحي فالكيرا.

الهجرات الدولية الجديدة التي وصلت الى تورينو منذ التسعينيات من القرن الماضي تطوّرت اقتصادياً وحضارياً بشكل مختلف تماماً: أولاً خلقت الأزمة اقتصادية أصابت المدينة في العقود الأخيرة، تقلصت فيها فرص العمل بشكل كبير ومن ناحية أخرى أصبحت بعض الأحياء مثل أورورا وسان سالفارو مناطق التوطين الأول للمهاجرين، نفس الأحياء التي حاربت المهاجرين في بادئ الأمر. لقد مضى أكثر من أربعين عاماً على بداية هذه المرحلة من تاريخ المدينة. تُشكّل الهجرات اليوم عنصراً أساسياً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لمدينة تورينو. وفقاً لأحدث الإحصائيات لبداية عام 2022، فإن عدد المقيمين الأجانب وصل إلى 131000 شخص، وهي نسبة أقل من 15٪ من مجموع السكان الإجمالي. من بين هؤلاء، حوالي الثلث هم من مواطني الاتحاد الأوروبي وأغلبهم من رومانيا، تليها جاليات من المغرب والصين والبيرو ونيجيريا ومصر وألبانيا والفلبين ومولدافيا وبنغلاديش.

إن أحياء باريرا دي ميلانو هي المنطقة من المدينة التي تضم أكبر عدد من المقيمين الأجانب، أكثر من 17000 شخص. انقضت فترة طويلة على وصول المهاجرون الأوائل، الأمر الذي يصعب دراسة الهيكل الاجتماعي للمدينة مما يجعلنا نتساءل عن سبب تسميات الفئات "مهاجرين" و "أجانب"، وهي ألفاظ غالباً ما تستخدم لوصف هذه الظاهرة. أشخاص أمضوا معظم حياتهم في تورينو، شبابٌ وُلدوا ونشأوا في مدينتنا، عائلات ترعرعت هنا وتتأمل أن يكون مستقبلها هنا ... بغض النظر عن الوضع القانوني الذي يجدون أنفسهم فيه، بحصولهم على الجنسية الإيطالية أو عدم حصولهم، يجب الأخذ بالاعتبار بأنهم "مواطنون بالفطرة"، يُثبتون أنفسهم كسكان مدينة تورينو بكل مقومات الحياة اليومية، من عاملين وعمالات في مختلف قطاعات الاقتصاد المحلي، من طلاب وطالبات المدارس والجامعات، وأعضاء ناشطين في المجتمع. من وجه النظر هذه، فإن كل حي من أحياء المدينة يبرز صورة تورينو التي لا تستطيع ولن تستطيع اليوم الاستغناء عن كل هؤلاء آلاف المواطنين الذين تربطهم جذورهم بمدن وبلاد أخرى من جميع أنحاء العالم، أصبحوا في الأونة الأخيرة من السكان الفعليين للمدينة.

قام متحف المقاومة والترحيل والحرب والحقوق والحرية بإنشاء معرض حول هذه الموضوعات، لنشر الوعي حول الهجرات، كان ذلك في تورينو عام 2011 بمناسبة الاحتفالات بالذكرى الخمسين بعد المائة للوحدة الوطنية. كان المعرض يضم مجموعة من الصور والخرائط ومقاطع الفيديو وشهادات صوتية، الأمر الذي ساعد في تنشيط الذاكرة لفترة ثلاثين عاماً من تاريخ المدينة عبر مشاهدات واحاديث السكان الجدد. كان قرار الإشراف وتنسيق المعارضات على عاتق ثلاثة علماء في علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) وهم كارلو كابيولو، بيترو شينجولاني وفرانشيسكو فيتّي. في الواقع كان ذلك القرار صائباً لأن دراسة علم الإنسان يضع أهمية وجهة نظر المهاجرين ضمن الأولويات، فاستطاعوا من خلال التجربة المباشرة وتبادل الثقافات المختلفة أن يجمعوا صور عديدة التي

استُخدمت في المعرض، تلك اللقطات قام بتصويرها، عبر سنين عديدة، مجموعة من المصورين المحترفين وغير المتخصصين بالإضافة الى بعض المهاجرين و العلماء أنفسهم. إضافة لتلك الصور تم جمع بعض صور لأوراق الصحف والمجلات المحلية لتلك الفترة والتي يبرز فيها كيف كانت نظرة الجمهور بشكل عام باتجاه المهاجرين.

المعرض اليوم هو انتقاء لبعض الصور التي استخدمت في عام 2011 وإعادة ترتيبها. بفضل تعاون بعض الهيئات المحلية الناشطة في منطقة بورتا بالازو والتي تسعى للحوار بين الثقافات والأديان أسست مشروع "بوابة الثقافات" (Porta delle Culture)، تقرّر اختيار جزء من الصور الأصلية، وتنظيمها في ستة أقسام: "العيش في تورينو" من خلال مساحات المنازل والعائلات والعلاقات الاجتماعية. "التجوال ضمن أحياء تورينو"، قصص الوافدين والمغادرين والعائدين، بالاستعانة الى بعض صفحات الجرائد لتلك الفترة. "التطلعات والجهود"، ضمن الطرق العديدة في العمل. "الأديان بين الروحانيات والانتماء الاجتماعي"، من خلال ظهور المجتمع عبر التنوع الديني. "مدارس تورينو"، من خلال الأوجه المتعددة التعليم المباشر وغير المباشر. "الحق في المدينة"، ضمن النشاطات الاجتماعية والصدقات مع ابراز اهتمام خاص للأجيال الجديدة.

يضاف إلى هذه الأقسام قسم جديد نهائي سيتم تنفيذه بمساهمة جمعيات مشروع "بوابة الثقافات" وذلك خلال فترة المعرض، سيتم إضافة مواد مصورة جديدة تدريجياً، سيتم ذلك الى إلقاء نظرة على المستقبل القريب لمدينة تورينو.

## العيش في تورينو: الأماكن ومساحات التعايش

Abitare a Torino: luoghi fisici e spazi di relazione

"ظل منزل والدينا في المغرب فارغاً، ولا أحد يعيش فيه ... لم أنتهي من بناء بيتي، ما زال قيد الإنشاء، لم ننتهي من بناؤه لكننا لم نرغب في بيعه، سيقررون بيعه أطفالي في المستقبل. الأشجار الصغيرة التي تركناها عندما غادرنا أصبحت الآن تنتج الجوز. من المؤلم جداً الحديث عن ذلك الآن".

تُحدِّثنا لطيفة، وهي مهاجرة من المغرب، أن المنزل يمثل مورد أساسي، إن كان ذلك في إيطاليا أم في بلد المنشأ، إنه المكان الذي يعطينا الاستقرار والأمان، وفي نفس الوقت هو المكان الذي يمدنا بالعواطف ويحدد هويتنا. إن الخيارات السكنية للمهاجرين هي عديدة، ممكن أن يكون سكن مؤقت أو في مخيمات غير شرعية أو سكن مشترك إلى أن يصبح منزلاً مستقلاً بالإيجار أو بالملكية. في أفضل الظروف غالباً ما يتم التخلي عن مناطق الاستيطان الأولى، مثل بورتا بالازو أو باريرا دي ميلانو، ويبدأ البحث عن سكن في مناطق أخرى، في الضواحي أو في القرى النائية. تعتمد هذه الاختيارات على الظروف الشخصية ولكن يتم تحديدها في نفس الوقت وفقاً للسياسات المحلية والسكنية التي تفرضها المؤسسات العامة والسوق المحلية، العديد من مالكي المنازل الخاصة في تورينو، على سبيل المثال، يفضلون عدم إيجار عقارهم للأجانب.

إذا ما ألقينا نظرة على المفروشات داخل المنزل وتنظيم المساحات فيه، سنكتشف أنه يرتبط بتراث بلد منشأ المهاجرين الذين يسكنونه، أو قد يعكس أنواع جديدة متعلقة بطبيعة الحياة في إيطاليا.

أما بما يخص العلاقات الأسرية فهي مرتبطة بشكل واضح بالعلاقات الاجتماعية. على سبيل المثال نجد حالات الانفصال وإعادة لتكوين وتشكيل أسر متعددة جديدة من المهاجرين. نلاحظ أيضاً في تورينو انتشار الزواج من جنسيات مختلفة أو حتى زواج المثليون جنسياً. لذلك، وبسبب كل تلك الظواهر، فإن تكوين أسرة وتكوين منزل جديد قد يصبح إجراء صعب يتجاوز امكانيات الأفراد وامكانيات المجتمع.

## التجوال ضمن أحياء تورينو

In viaggio per Torino

"نخطط في هذا العام لقضاء الإجازة في البيرو لكي يستطيع ابننا التعرف على البلاد وفنون وثقافة أجداده، بما أنه كان صغيراً جداً عندما غادرها. سنذهب لزيارة مدينة كوزكو، لأننا نحن أيضاً لم نزرها من قبل".

كانت تلك كلمات بوكالبا، أصله من البيرو ولكنه يقيم في مدينة تورينو منذ أكثر من عشرين عاماً، تلك السنوات التي تتحدث عن تعقيدات الهجرة، هناك بلا شك رحلات خارجية، تلك التي تقود المهاجرين الى إيطاليا، وهي بلا شك تمثل نقطة تحوّل في حياة المهاجرين وهي التي تُصيّبنا في أعماقنا خاصة اذا حدثت بطرق خطيرة ومؤلمة، كما هو الحال عند عبور البحر الأبيض المتوسط بوسائل بدائية. هناك أيضاً العديد من أشكال الهجرة التي تكاد لا يلاحظها أحد، مثال على ذلك طريقة لمّ شمل الأسرة، العودة إلى "الوطن" لزيارة الأصدقاء والأقارب واستثمار في الخارج ما جناه من خلال العمل. بالنسبة "للجيل الثاني" قد يكون هناك نوع مختلف للهجرة وهو قضاء فترة الأعياد في بلاد الآباء، وأيضاً العودة النهائية لأولئك الذين يقررون إلغاء الهجرة. "الهجرات الثانوية" وتخصّ الأشخاص الذين ينتقلون إلى وجهات أخرى بعد هجرتهم إلى إيطاليا. ومرة أخرى، التنقّل الداخلي ضمن إيطاليا، لأن الهجرة في كثير من الأحيان لا تتوقف عند مكان الوصول الأول بل ينتقل المهاجرون من مدينة الى مدينة أخرى، أو حتى من المدن الى الأرياف.

في هذا القسم من المعرض، نعرض الصور التي تُحاكي دورة الوافدين، المغادرين والعائدين للوطن، إنها ظواهر تربط مدينة تورينو مع مدن أخرى في أوروبا وفي جميع أنحاء العالم من خلال رحلات المهاجرين، مع البيان أنه تمّ تقديم الهجرة ضمن المساحات العامة ومن خلال الإعلام. إن مقالات صحيفة "لا ستامبا" التي نُشرت في القرنين العشرين والحادي والعشرين توضح كيف قدّمت الصحافة ظاهرة الهجرة وكيف تحوّلت احياء مدينة تورينو مع وصول المهاجرين. الأخبار في هوامش الصحف، تلك هي العادة في إيطاليا عندما يتعلق الأمر بالهجرة، تترك المجال في بعض الأحيان لتقارير وتحقيقات صحفية حول ظواهر متوسطة أو طويلة المدى، الأمر الذي جعل موضوع الهجرة يصبح ظاهرة "طبيعية" في الواقع الاجتماعي والاقتصادي والثقافي لمدينة تورينو.

تظهر أيضاً مشكلة أخرى ضمن مقالات هذه الصحف حول البحث العلمي للهجرة، من له الحق بالحديث عن "الأخرين" وكيف يكتسبون حق التمثيل الذاتي؟ من هم الذين يستطيعون إيصال أصواتهم للجمهور عندما يتعلق الأمر بالهجرة؟

## التطلعات والجهود: العمل

Aspirazioni e fatica: il lavoro

"لديّ الآن أربع وظائف: رعاية للمسننين في يوم الأحد، أعمال منزلية خلال الأسبوع، أحياناً جليسة أطفال بالإضافة الى الوساطة الثقافية. قبل وصولي، كان لديّ أمل أن أعمل لمدة سنة واحدة لكي استطيع تغيير حياتي. هكذا كنتُ أرى الغرب، فرص أفضل للحياة حيث كانت الحُرّيات حافزاً للتنمية. بدلاً من ذلك وجدت نفسي في السنوات الأولى أعيش في عالم إقطاعي، عندما كنت أقوم في رعاية المسننين".

إيرينا هي مهاجرة من مولدافيا ومقيمة في تورينو منذ سنوات عديدة، شهادتها تعكس بشكل واضح شبه استحالة تحقيق امال المهاجرين في تحسين ظروف العمل التي تشبه تلك الظروف السائدة خلال فترة العصور الوسطى. يبقى الدافع الرئيسي وراء أسباب الهجرة هو البحث عن وظيفة، التطلّع نحو الرفاهية وثبات الذات اجتماعياً لأنه قد يكون العمل هو الوسيلة الأساسية للاندماج في المجتمع الجديد، وفي بعض الحالات يساهم العمل في تحسين الوضع الاجتماعي، ولكن غالباً ما تتحطم آمال المهاجرين بسبب الواقع المرير الذي يتجسد في نقص العمالة والاستغلال وعدم احترام حقوق العاملين.

يعمل المهاجرون بشكل أساسي ضمن قطاعات عمل معينة، ذلك بسبب عوامل مثل التمييز العنصري أو مشكلة مُعادلة الشهادات الأجنبية أو تأثير المؤسسات الاجتماعية. يتميز نوع ذلك العمل في خمسة سلبيات: أجرٌ مُنخفض، مخوفٌ بالمخاطر، أعمال شاقة، منبوذٌ اجتماعياً وخطير. تماماً كما تظهره هذه الصور المعروضة التي تم جمعها، نجد عدداً كبيراً من المهاجرين يعملون في الصناعات الصغيرة، في البناء، في الخدمات التي لا تحتاج الى مهارات وفي رعاية المسننين. بسبب تلك الأنواع من الأعمال فإن إمكانيات الاندماج في المجتمع تبقى محدودة نوعاً ما، لا سيما في التجارة والمطاعم والبناء، وهي الأعمال التي يلجأ إليها العديد من المهاجرين لتحسين ظروفهم الاقتصادية وظروف العمل.

في أغلب مجالات العمل نرى أن المهاجرين يبقون منعزلين نوعاً ما عن باقي فئات المجتمع، بالإضافة الى العديد من حالات الاستبعاد والتمييز، نتيجة لذلك يتم إدراج غالبية المهاجرين في أدنى درجات التسلسل الهرمي لأنواع المهن.

بسبب الأزمات المتعددة التي شهدتها في السنوات الأخيرة مدينة تورينو وإيطاليا، من الأزمة المالية في عام 2008 إلى الأزمة بسبب الوباء والحرب في أوكرانيا، هناك تدايعات قوية على وضع العاملين والمهاجرين، فهم معرضون لظروف عمل قاسية وخطيرة وفي وضع انعدام أمني، مما يجعل وضعهم أكثر صعوبة. لكن نستطيع أن نقول أن الرغبة نحو التحسن على الصعيد الشخصي أو العائلي يبقى المحرك الحقيقي للهجرة، أقوى من أي أزمة.

## الأديان بين الروحانيات والانتماء الاجتماعي

Le religioni, tra spiritualità e identità collettive

"عيدنا الأسبوعيّ هو يوم الجمعة، حيث يذهب المغاربة إلى المساجد. منذ سنين عديدة لم يكن في تورينو مساجد كما هو الحال في المغرب، لكن اليوم يوجد العديد من المساجد وتحسّن الحال في هذه المدينة لأن يمكنك الآن أن نجد كل متطلباتنا، اللحم الحلال، المسجد، المنتجات المغربية، الملابس".

هكذا يقول لنا عبدالله من المغرب ومقيم في تورينو منذ عام 2001، لا يمكن إنكار أهمية الحياة الدينية في حال الهجرة. بالنسبة للمهاجرين الدين له قيمة مزدوجة، الى جانب الأهمية الروحانية هناك أيضاً جوانب الانتماء وعادات مجتمع بلد المنشأ، كما تأكد لنا إيرينا بكلماتها: "أنا مسيحية أرثوذكسية، لكنني اعترف انني لا أذهب الى الكنيسة في كل ايام الأحد. اثناء القداس يجتمع دائماً الكثير من الاشخاص لأننا لا نذهب فقط من أجل الصلاة ولكن أيضاً لرؤية الأصدقاء ولتبادل أطراف الحديث، لتصبح الكنيسة أيضاً مكاناً لإجتماع الجالية".

أدت الهجرة إلى كثرة الطوائف الدينية الموجودة في المدينة. مسيحيون أرثوذكس وكاثوليك وإنجيليون وبروتستانت والمسلمون، تلك هي الطوائف الأكثر تواجداً في المدينة، لكن لا يجب ان نتغاضى عن وجود مجموعات أصغر (مثل الهندوس والبوذيين والمسيحيين الأقباط...) بالإضافة الى عدد كبير من الملحدين وغير المتدينين.

ظهور أماكن عبادة جديدة، مثل المساجد التي تحدث عنها عبدالله، هي غالباً في مركز الجدل، فهي في الواقع دليل على الرغبة في التكامل والاستقرار من جانب المهاجرين، ومن الطبيعي ألا يحدث هذا دون نوع من الجدل، ولكن هل هو صحيح القول أن البعض يستغل أماكن العبادة لتثبيت الهوية الشخصية ولقضايا سياسية؟

## مدارس تورينو: ورش عمل من أجل المواطنة

Le scuole torinesi: laboratori di cittadinanza

إن تسمية "طلاب أجانب غير إيطاليين" تشمل عدداً كبيراً من حالات الوافدين والعائدين من الخارج ومن حالات الإدماج الاجتماعي التي نشاهدها هنا في إيطاليا لكن ليس بالضرورة فقط في الأماكن الناطقة باللغة الإيطالية. إن نسبة 69% من هؤلاء الأشخاص، بالتحديد 14200 طالب قد وُلد في إيطاليا من والدين من أصل أجنبي، هذا الرقم ازداد كثيراً في السنوات الأخيرة وقابل للزيادة المستمرة.

تمثل التعددية الدينية تحدياً لواحدة من أهم المؤسسات في التربية الاجتماعية للأجيال الجديدة من المهاجرين وأطفالهم، ألا وهي المدرسة. في العام الدراسي 2021 / 2022 كان هناك 20500 طالب غير إيطاليين إلتحق بالمدارس في مدينة تورينو، أي ما يقارب 20% من المجموع العام للطلاب. هؤلاء الطلاب نجدهم اليوم موزعون على جميع الفئات التعليمية، من المدرسة الابتدائية إلى مختلف المراحل للمدرسة الثانوية، أصولهم من 152 دولة مختلفة، بشكل أساسي من رومانيا (30%) تليها المغرب وألبانيا والصين.

غالبية هؤلاء الطلاب ينتظرون بأن يتم الاعتراف بجنسيتهم الإيطالية من وجهة نظر قانونية، ومع ذلك فإنهم يشاركون بشكل فعال في جميع النواحي من أجل الإدماج في المجتمع خاصة مع أصدقائهم ولكن في نفس الوقت لديهم احتياجات خاصة تتعلق بالبيئات اللغوية المختلفة وبيئات ثقافية متعددة. وتمثل المدرسة العامة البيئة الأمثل لتنمية تلك الاحتياجات الاجتماعية فضلاً عن كونها اطار هام جداً في أكثر المناطق هشاشة للمدينة.

## الحق في المدينة

Il diritto alla città

" نظرتهم تملأها الحيرة، نظرة فرح ممزوجة بالضياح، هي نظرة تلك الأشخاص عندما يتواجدون في مكان لا ينتمون إليه. لم يولدوا في هذا المكان، لكنهم يشعرون وكأنهم ينتمون له. المدينة تحيط بهم بحرارتها الصيفية، لكن نظرات اللامبالاة التي تحيط بهم تدفعهم الى الإنعزال ".

هكذا كتب يونس توفيق في قصته " تحت المولة ". من خلال هذه السطور القليلة يظهر لنا حقيقة هامة: لا تتحل مشكلة الهجرة بمجرد الحصول على عمل، طبعاً هذا الموضوع يبقى من الأساسيات، ولا يمكن اختزال العلاقة مع مجرد مسألة إنتاج واستهلاك. هناك موضوع أشمل وأكبر، ألا وهو "الحق في المدينة"، وهذا الحق المدينة إلى يشمل الجميع على حد سواء، إن كانوا مواطنين أو مهاجرين أو غير مهاجرين، إن كانوا من الجيل الأول أو الثاني، كما أوضح الفيلسوف هنري لوفيفر. هذا هو المدخل الحقيقي للحياة في المدينة، متجاوزين التركيز فقط على الاحتياجات الأساسية بل التركيز على العلاقات الإجتماعية والمشاركة بنشاط في جميع الفعاليات الاجتماعية والثقافية. طبعاً هذا الأمر يتطلب التفرد بشكل كبير وتوفير أماكن مناسبة للإجتماعات ولتبادل الأفكار والمناقشات والإستمرارية في مطالبة حق الوجود.

أن يجتمع الشخص مع اشخاص آخرين مهاجرين من نفس بلده ويشاركهم في الأنشطة الثقافية التي تروج لها الجمعيات الخاصة بالمهاجرين ويحتفل بالأعياد الوطنية والدينية الخاصة ببلده ويذهب إلى المطاعم أو النوادي أو المنتزهات معهم، كل تلك الأنشطة يمكن أن تكون وسيلة للشعور بالإنتماء "للمجتمع"، وسيلة لكي تحرك المشاعر والاهتمامات المشتركة لتقوية الروابط والمساهمة في الشعور بالأمان والإبتعاد عن آلام الحنين لبلد المنشأ. من ناحية أخرى هي أيضاً وسيلة للتطلع الى المستقبل والإبتعاد عن التفكير في الماضي، خاصة بالنسبة للشباب والجيل الثاني. الإستمتاع بقضاء وقت جميل مع ابناء بلدك، بغض النظر عن القصص العائلية ومشاكلها، فهي قبل كل شيء وسيلة للمضي نحو سن البلوغ، في مدينة تعددت بها مختلف الجنسيات من جميع أنحاء الأرض، وهذه المدينة مختلفة تماماً عن تلك التي عرفها أبائهم، يجب التركيز على تعددية الهوية.